جامعة قسنطينة 1 الجزائر
كلية الآداب واللغات
قسم والآداب واللغة العربية
الأستاذ الدكتور دياب قديد
أستاذ التعليم العالي
الهاتف: 00213771656809
البريد الالكتروني : lkaddid@yahoo.fr

عنوان المداخلة

إسهامات الكتابة الأدبية للأطفال ودورها في التنمية اللغوية بين الراهن والمستقبل
قراءة في وعي الرصيد اللساني للطفل في العالم العربي

الملخص :

تهدف هذه الورقة البحثية إلى القراءة النسقية للكتابة الأدبية الموجهة إلى الطفل ، ومدى إسهاماتها الفعلية في تنمية الرصيد اللساني عنده ، من حيث التهيئة النفسية السليمة ليكون أكثر استعدادا لتكوين معجم لغوي فصيح ، يقدم له ثروة لغوية ، ويعمل على توجيهه وفق الضوابط التعليمية للغة ، على أساس أن الاهتمام بالطفل ، وتنشئته تنشئة نفسية واجتماعية وفكرية وجمالية سليمة مع مراعاة ميولاته ورغباته الفطرية من شأنه الإسهام بشكل جيد في نموه ، وهذا ما أكد عليه علم النفس التربوي الحديث .

انطلاقا من هذه النظرة الحديثة راح بعض الأدباء توجيه كتابتهم للطفل لحاجته الماسة إلى تنمية مخياله الفني والأدبي ، وهوما يعد أمرا ضروريا في هذه المرحلة ، ولعل جهود كل من أحمد شوقي ومحمد عثمان جلال من خلال حركة الترجمة والتعريب التى أوردها لحكايات لافونتين " العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ " وإبراهيم العرب من خلال ديوانه " آداب العرب " والذي تضمن القصة الشعرية على لسان الحيوان ، وكذلك كامل الكيلاني من خلال أول قصة ّ السندباد البحري " والشاعر محمد الهراوي وآخرون كان له أثر كبير في تعليم الطفل وتوجيهه توجيها حسنا يعمل على صقل مواهبه ، وتفتيق عبقريته ، ولكن النقلة النوعية والمتميزة هي ما شهدته مرحلة الثمانينيات والتسعينيات في مجال التأليف الشعري والقصصي والمسرحي للأطفال إذ أسهم كوكبة من البدعين في هذا الاتجاه ، وقد برز على الساحة الأدبية كل من الشاعر سليمان العيسى وعبد القادر السائحي ومصطفى الغماري وكامل الكيلاني وجميلة زنير في الكتابةالقصصية فضلا عن بروز بعض الكتاب الموهوبين في ميدان المسرحية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب ، بل نشأت بعض الفضائيات خاصة بالأطفال ، وهذا ما عمل على تنمية المدركات اللغوية والعقلية والنفسية للطفل ، وتنامي القدرة على اكتساب مهارات لغوية جديدة .

بناء على هذا تحاول هذه الورقة البحثية الولوج إلى عمق عالم الطفل ، والكشف على أسرارأسس التنمية اللغوية ، وطرائق تلقينه قواعد اللغة العربية ، وتعليمه أبجديات اللسان العربي من خلال المنجز الأدبي

الموجه إلى الطفل ليكون عملا أساسيا في رسم معالم الغد المشرق للغة العربية ، من حيث إن الرهان الآن قائم على أسس الاستثمار الفعلي في بناء الطفل ، وتشكيله حسب متطلبات الراهن مع المحافظة على هويته اللغوية . على هذا الأساس فإن هذه القراءة الحداثية من شأنها العمل على حسن تكوين الطفل تكوينا لغويا سليما يتماشى مع نموه الطبيعي .

شكلت الدراسات العربية المعاصرة اهتماما بالغا بالطفل من حيث تنشئته، وتربيته على أسس منهجية علمية دقيقة، تراعي فيها الجوانب النفسية والمدركات العقلية للطفل، وتُعنى بالمراحل العمرية للطفل، ذلك أن كل هذا يكون ضمن رؤية علمية متناسقة ومنسجمة مع أبديات التطورات الحاصلة في البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمعات والشعوب، وهو ما يعني أن مثل هذا العمل يستدعي تظافر جهود جميع العاملين في حقول المعرفة والوجود من أجل أن تكون قادرة على تأدية وظائف نمو الطفولة وبطريقة سليمة وعقلانية ونفسية.

إن بمجرد التفكير في هذه الوظيفة من شأنه العمل على ترقية شعور الطفل، وتنمية أدواته اللغوية، مع الحرص على عدم تغييب الجوانب الجمالية في العملية عند كل مرحلة من مراحل نمو الطفل.

ولقد عمل الفكر الغربي عبر قرون على العمل بشكل متواصل على شحذ الهمم، ورسم معالم الإسهامات الفعلية في الكتابة للطفل من منطلق الحرص الشديد عل ضرورة الولوج إلى عمق الطفل للكشف عن مختلف الصيغ والإجراءات التي من شأنها إنشاء الطفل إنشاء متوازنا نفسيا وعقليا واجتماعيا، حيث عملت على خلق بيئة اجتماعية منسجمة تقوم بتكوين معجم لغوي رصين تكون إشعاعات إيجابية على نمو الطفل في مراحله المتعددة والمختلفة، لأنّ سلامة النمو عند الطفل أمر ضروري لتحقيق المنفعة المستقبلية، ذلك أن الغرب أدرك بتجربته وممارسته ومستوى التطور الذي وصل إليه، حيث إن الطفل هو مستقبل الأمة، فإذا ما أهمل الكبار الصغار، فإن تبعات ذلك ستكون نتائجها كارثة فعلية على صعيد المجتمع والأمة، وهو ما عمل الغرب على تفاديه من خلال حسن رعاية الطفولة، وجودة الإشراف على الآليات المؤدية إلى التنشئة الاجتماعية الجيدة التي تكون بفضل المواهب، وتنمية الرصيد اللغوي الصحيح عند الطفل.

انطلاقا من هذا التصور المعرفي الجيد، واتساقا مع هذه الرؤية الشاملة في نمو الطفل، وبناء صرح الأمة، دأب الغرب على توفير جميع مستلزمات الصنيع النهضوي الذي أثمر بقفزة نوعية في مجال تربية الأطفال، وكانت من نتائجه ما وصل إليه الغرب من استحقاقا علمية واكتشافات تكنولوجية مذهلة، وخلق

عالم طفولي متفرد، وهو ما عجزنا نحن العرب لحد الساعة على إدراكه، والوصول إلى محطاته، ولعلّ السبب يعود بالأساس إلى هذا التراكم في الإهمال، ونقص في الرعاية، وسوء في الإعداد، واستخفاف بعالم الطفولة، ولهذا نحصد ما زرعنا، ونأكل ما انتجنا، وننشئ ما هيأنا له سُبل البناء والتشييد، ولما كان هذا الواقع بهذه الصورة البائسة، تعالت الأصوات الداعية إلى نفض غبار الإهمال والكسل، واستشعارا بخطورة الوضعية، عكف الدارسون والمهتمون بشؤون التربية على حسن الاهتمام بعالم الطفولة من خلال إسهامات الكتابة الأدبية للأطفال، وربما يكون أحمد شوقي من الأوائل الذين ركزوا على ذلك بقوله: «وجريتُ خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الشهير، وفي هذه المجموعة شيء من ذلك فكنتُ إذا فرغْتُ من وضع أسطورتين أو ثلاث، اجتمع بأحداث المصريين، وأقرأ عليهم شيئا منها يتفهونه لأول وهلة، ويأنسون إليه ويضحكون من أكثره وأنا استبشر لذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة منظومات قريبة المتناول، يأخذون الحكمة والادب من خلالها على قدر عقولهم، والخلاصة أنني كنتُ ولا أزالُ أُلوِي في الشعر على كل مطلب، وأذهبُ من فضائه الواسع في كل مذهب، وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي خليل مطران صاحب المتن على الأدب والمؤلف بين أسلوب الأفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب، والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية»[1].

يكشف هذا النص على أن أثر الإفرنج كان كبيرا على توجيه أحمد شوقي للكتابة الأدبية للأطفال، وقد استوحى ذلك من تأثره بـ(لافونتين) من خلال الحكايا على ألسنة الحيوانات، وقد شكل هذا مرتكزا أساسيا في دعوته الصريحة إلى الكتابة الشعرية للأطفال، ولعلّ هذا الجهد لم يكن مقتصرا على أحمد شوقي فحسب، بل إن هناك جهودا أخرى أسهمت في الاعتناء بالطفل على جميع المستويات، لأن الأمر لم يكن محصورا في الشعر، بل تعداه إلى القصص الفكاهية، وتنمية الخيال السلمي، وإرساء معالم الجغرافيا، والتركيز على التراث الشعبي العربي من خلال الأساطير والخرافات التي يحتوي عليها هذا المخيال العربي عبر قرون من الحكي الحرافي الممزوج بالعجائبية، والترفيهية، إلى جانب الأغاني الشعبية والوطنية والدينية المتوارثة جيلا بعد جيل، وربما يكون للوسائل المسموعة والمكتوبة وخاصة المرئية جانب مهم في تنمية المهارات اللغوية، وتنشيط ذاكرة الطفل في تجسيد البرامج التعليمية الموجهة للطفل، من خلال تكثيف منهجي يسعى إلى تحديد الأهداف المتوخاة من هذه البرامج، فالمادة العلمية أو الترفيهية أو الإشهارية يجب أن تكون مدروسة بإحكام، وتجسيد مقومات الأمة ومرتكزات نهضتها، وتعبِّر عن أصالتها وقيمتها، كل ذلك يجب أن يكون واضحا وممنهجا، لأنّ العملية التعليمية ليس المقصود من ورائها الجانب التعليمي فقط، وإنما للقيم والعادات والأخلاق، جانب مهم فيها، فهي لا تقل قيمة بحث العملية التعليمية.

وعلى هذا الأساس، فإنّ التربية الحديثة لا تستبعد عاملا ما قد يكون في نظر بعضهم على أنه لا شكل أهمية في العمل التربوي، بل على العكس فهي تسعى جاهدة إلى إعطاء مساحة كبيرة في حقل

الدراسات التربوية للطفل من الاعتناء بها، وتوفير الأجواء الإيجابية المساعدة على خلق المناخ الطبيعي المحفز لنمو الطفل على أسس بيداغوجية وعلمية ونفسية يكون لها اليد الطولي في ترسيخ التنشئة الصحيحة للطفل، اتساقا مع هذه النظرة الحداثية بدأت الأنظار تتجه شيئا فشيئا إلى العناية بالمقومات العلمية التربوية للطفل من خلال:

1-الاهتمام بالكتاب الموجه للطفل بطريقة بيداغوجية وعلمية، وقد شهدت الفترة الأخيرة تزايدا لافتا للانتباه للإصدارات في مجال الطفل، سواء تعلق منها بالدراسة النفسية، أو التأليف لإرضاء رغبات الطفل، وحاجته الماسة إلى مثل هذا العمل.

2-ميلاد قنوات فضائية تختص بعالم الطفولة، وترتكز على اللغة العربية الفصيحة في رسالتها التواصلية، لا سيما عبر الأفلام الكرثونية المدبلجة، وبدأنا نجني ثمار هذا العلم على مستوى أن الطفل الذي يداوم على متابعة هذه المسلسلات يصبح أكثر قدرة على التوظيف السليم للغة العربية، من حيث النطق أو اكتساب معجم لغوي عربي فصيح يكون مادة لغوية في حياته مستقبلا.

3-استحداث برامج إذاعية تُعنى بشؤون الطفل، وقد ظهرت في دول عربية كثيرة، ولها صدى إيجابي متميز.

4-تخصيص ركن من صفحات الجرائد اليومية أو الأسبوعية للطفل من حيث معرفة مشاكلهم أو رغباتهم، والبحث بين طرائق المعالجة لها بعد الدراسة العلمية.

وعلى الرغم من أن هذه الوسائل تسهم في التنمية اللغوية للطفل، وتعمل على توعية الطفل بالحاجة إلى رصيد لساني قوي يكون بمقدوره تحريك المجتمع على أسس متينة ، لأنّ الوصول إلى غد أكثر قوة وتميزا يمرُ حتما عبر بوابة العناية بالطفل والاهتمام بحاجاته، فهو الذي يحمل على عاتقه مسؤولية المستقبل، ولكن حينما نخفق في هذا الإعداد، فإنّ كل هذه المشاريع والأحلام التي نحملها ما تفتأ أن تتهاوى واحدة تلوى الأخرى، وبالتالي سيكون غدنا أسوأ من يومنا، ولن يكون لنا حضور في عالم لا يؤمن إلا بالتطور والاختراع والتوازن في شتى شؤون الحياة.

وإذا كان هذا هو حال الغرب الذي شهد رعاية خاصة، وتأطير شاملا للطفل من خلال تحديد رغباته ومطالبه، وعن طريق ذلك يتم وضع برنامج دقيق، يستجيب لهذه الحاجات، ويعمل على توفير كل الإمكانات المادية والبشرية التي من شأنها حسن إعداد الطفل بيولوجيا ونفسيا واجتماعيا وفكريا، فإن حال العرب لم يكن كحال غيره، إذ كان أسوأ بكثير لأن الكبار انشغلوا عن هذا الإعداد بأمور غيّبت حضور الطفل في ثقافتهم، وأفقدتهم القدرة على حسن التصور الابستيميولوجي لنمو الطفل، فكانت من نتائجه أن الطفل العربي يعيش حالة غريبة من الضياع والتشرد، ويعاني معاناة مأسوية في بعض الدولة العربية التي تشهد حالة اللاستقرار من ناحية الأمن البشري والغذائي، ولهذا السبب ارتمى الطفل إما في أحضان

الجريمة أو الإهمال، وأصبح يعاني من صدمات فنية نتيجة حالة الإهمال والتقصير في المتابعة أو مرافعة الطفل في نموه الطبيعي ليكون أداة في يد الإجرام، ويتحول بعد ذلك إلى دمار شامل للبلاد والعباد، وهذا ما يحول بينه وبين أن يصبح عضوا أساسيا في البناء والتشييد والعمران، وما هذا التشرد في عالم الطفولة، إلا دليل على هذه الانتكاسة الحقيقية التي يعاني منها أطفال العالم العربي في ظل التطاحن على السلطة، والتناص من أجل منصب سياسي يمكن أن يجلب لهم المنفعة الشخصية بعيدا عن النظرة الشاملة ووضع المصلحة العامة فوق كل اعتبار، لأنّ الوقائع والأحداث كانت تعكس حقيقة مأساة الطفل العربي، وتدعو كل الهيئات السياسية والجمعيات المدنية، والعلمية إلى ضرورة العمل سنويا من أجل إخراج عالم الطفولة من هذا المستنقع، ليسهم الطفل في التنمية الوطنية، ونكون بذلك قد عززنا حضورنا في عالم لا يعترف إلا بالقوي، ولا يؤمن إلا بالذي يمتلك الأدوات الإجرائية الكفيلة بالنهضة العلمية الشاملة.

بناء على هذا التصور السليم للعملية التربوية، والنظرة الصحيحة للطفل، فإنّ هناك حالة من الوعي الفردي والجماعي الذي يشهده العالم العربي خاصة مع نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة: تجسدت جهود الأدباء ولا سيما الشعراء وقد كان له مفعول إيجابي «بل إن نجاح شعر الأطفال وجودته يمكن الحكم عليه من خلال ربط تجربة الشاعر وخبراته بتجربة الصغار وخبراتهم، وذلك ضمن قالب، مما يُشير عواطفهم وخيالاتهم، ومما يخاطب أفكارهم وقدراتهم العقلية والانفعالية والنفسية، وهذا لا يتأتى لشاعر الأطفال إلا بعد معايشة الأطفال والإطلاع على واقعهم، والاختلاط بعالمهم الخاص بهم»[2].

وربما يعود هذا إلى أن الشعر أقرب إلى قلوب الطفل من حيث إيقاعه من جهة، ومضامينه المرتكزة على الأخلاق والقيم، وغرس مبادئ حب الوطن، والسعي وراء فعل الخير من أجل نفع المجتمع، وسلامة الأفراد، ولكن ينبغي أن تكون الأداة اللغوية طيعة للطفل، حيث تكون في متناوله وبلغة عربية خصيصة ليكون المران على النطق الصحيح منذ الوهلة التي يبدأ الطفل في التعامل مع اللغة ولهذا «فإنّ اللغة التي يكتب بها يجب أن تتفق بدورها مع درجة نموهم اللغوي، واللغة نوع من أنواع التعبير، ولكنها ليست الوسيلة الوحيدة في هذا المجال، ومن وسائل التعبير المعروفة»[3].

صحيح أن هناك وسائل أخرى إلى جانب اللغة تعمل على صياغة المنظومة المعرفية والأخلاقية للطفل في مراحل عمرية معينة، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى رسم مراحل اكتساب اللغة عند الطفل.

1-مرحلة ما قبل الكتابة: وهي المرحلة التي تسبق بداية تعلم الطفل الكتابية، وفيها يميل إلى القصص الخرافية وإلى قصص الحيوانات.

2-مرحلة الكتابة المبكرة من(سن6-8) وهي المرحلة التي يبدأ فيها الطفل في تعلم القراءة والكتابة... وفيها تكون قدرة الطفل على فهم اللغة المكتوبة.

3-مرحلة الكتابة الوسيطة (سن8-10) وفيها يمكن أن يتسع قاموس الطفل لكي نقدم له قصة كاملة موضحة بالرسوم تساهم فيها الكتابة بدور رئيسي، على أن نراعى في العبارات المستعملة أن تكون بسيطة سهلة مكتوبة.

4-مرحلة الكتابة المتقدمة (سن10-12) وفيها يكون الطفل قد قطع مرحلة كبيرة في طريق تعلم اللغة واتسع قاموسه اللغوي.

5-مرحلة الكتابة الناضجة (سن12-15) وهي مرحلة يكون الطفل فيها قد بدأ يمتلك ناصية القدرة على فهم اللغة[4].

هذه المراحل التي أشار إليها الباحث هي تعادل مرحلة الإعدادي (المشرق) والمتوسط (المغرب العربي)، وهنا: يجب الإشارة إلى أن في هذه المرحلة بإمكان الطفل أن يصبح قادرا تماما على صياغة تراكيب لغوية في غاية الدقة والتصوير، ويكون لخياله جانب مهم في التمظهر في مختلف الصور الأدبية التي تتشكل عنده، وهنا ينبغي التنبيه إلى أن العملية التعليمية عند الطفل تكتسي أهمية من حيث إن الأسلوب الذي يعرض على الطفل يجب أن يكون بعيدا عن التقعر في اللغة، أو استعمال غريب اللغة، لأنّ هذا قد يشتت من تركيزه، ولهذا يكون من المفيد في هذه المرحلة العمرية من توظيف الكلمات السهلة التي يكون لها وقع إيجابي على مستوى إدراك الطفل، ولكن هذا لا يلغي آلية استبعاد العناصر الأخرى المساعدة على حسن التعلم عند الطفل، ذلك أن «النمو عملية شاملة متكاملة ويؤثر فيها كل شكل في غيره، فالنمو العقلي مرتبط بالنمو الانفعالي، وكلاهما يتأثر بالوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الطفل، ونمو الطفل في القراءة مرتبط بغيره من أشكال النمو الأخرى»[5].

إن هذه النظرية الشاملة والمتكاملة في العملية التعليمية عند الطفل في المراحل الأولى من حياته تشكّل رصيدا لغويا متميزا في حياة الطفل، وهي التي تؤسس ثقافة الطفل من حيث تكوين شخصية الطفل تكوينا نفسيا وثقافيا واجتماعيا، طبيعيا يكون سندا له في ترقية معجمه اللساني ليكون في مستوى تطلعاته، وهو ما يكون دافعا قويا في بناء صرح الأمة دفاعا عن اللغة العربية من جهة، وردا صريحا على المشككين في قدرة اللغة العربية على استيعاب الحضارة العربية، وما وصلت إليه من تطور تكنولوجي هائل، وتدفق معرفي مدهش في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لأنّ في الآونة الأخيرة كثر الحديث عن عجز اللغة العربية على مواصلة ركب الحضارة العربية، ويعزى ذلك عند بعضهم إلى أن اللغة العربية لا تحمل خصوصية اللغات العالمية، ولكن الواقع أثبت عكس ذلك، وفند هذه الأباطيل لأنّ اللغة العربية كانت ولا تزال لغة ذات بنية نحوية وصرفية، ولسانية وتركيبية ودلالية متميزة، ولكن المشكلة تكمن في سلبية بعض دعاة اللغة العربية، لأن اليأس حين دبّ في النفوس، إذ صدقت هذه الدعوى، فركنت إلى الإهمال، واستمسك الضعف ولقد عبّر المتنبي عند إحساسه بالغربة حين كان يشيران

ولكن الفتى الغريب غريب الوجه واليد واللسان[6]

من هنا يتوهم بعض ضعاف القلوب أن تعليم الطفل اللغة العربية الفصيحة مخاطرة، من حيث إنه لا يقدر على ذلك، ربما يتعارض هذا مع واقعه المثقل بالعامية في كثير من الدول العربية، ويميل إلى الازدواجية اللغوية، في بعض الدول الأخرى، ولهذا فإن «الانطلاق من الرصيد اللغوي للطفل لا يتعارض مع اعتبار الفصحى نقطة انطلاق، إذ إن هذا الرصيد يحوي قدرا كبيرا من الفصحى يمكن الاعتماد عليه واستغلاله في العملية التعليمية، كان أن في ذلك الرصيد قدرا من الألفاظ الفصيحة التي اعتراها التحويل والتبديل، وتحتاج إلى جهد بسيط حتى تعود إليها سلامتها يمكن أن تستغل أيضا في عملية الانطلاق»[7].

لأنّ الطفل في هذه المرحلة العربية، له القدرة على تعلم اللغة، وتخزينها بطريقة سريعة وصحيحة، وهو ما يمكنه فيما بعد في حسن استغلالها، وتوظيفها حسب مقتضيات الحال؛ وقد ثبتت الدراسات أن الرصيد اللساني لا يتأسس في مرحلة الطفولة بهم جدا في العملية التعليمية والتربوية، ومن خلال الممارسة اليومية سواء في مرحلة المرافقة الدائمة، لأبنائنا في دراساتهم، أو من خلال الوقوف على انشغالات المعلمين والتلاميذ أثناء تحصيلهم اللغوي والعلمي، والأمر لا يقف عند هذا الحد فحسب، بل يتعداه إلى أن التنمية اللغوية من شأنها أن تسهم بشكل أساسي في ترقية الذوق الأدبي والأخلاقي والمدني عند الطفل في المراحل العمرية التي هو بحاجة ماسة إلى حسن التوجيه والإعداد، لهذا كان لجهود مجموعة من الأدباء دور فعال في تنمية مدركات الطفل النفسية والعقلية والجمالية، وهذا ما أشار إليه زكريا تامر الكاتب السوري بقوله: «لقد كتبتُ أكثر من مائة قصة للأطفال وهي كما اعتقد تتناول موضوعات متنوعة، وقد حاولت فيها أن أجُسد القيم التي اعتقد أنها جديرة بأن يتبناها الطفل.. حاولتُ أن أمنح الطفل رقعة صغيرة من الأرض الصلبة يقف عليها وتُتيح له النظر فيما حوله بعينين على اكتشاف من هو العدو ومن هو الصديق»[8].

وعلى الرغم من صعوبة المسؤولية فإن هذا لم يمنع بعض الأباء من تحمل مسؤولية واقتحام لُجج هذه الصعوبات بعزيمة وتحدّ، وفي هذا الصدد يقول سليمان العيسي «وربما تعمدت الرمز والصعوبة في الألفاظ والغرابة في بعض العبارات فوق سن الطفل، وكل ذلك أتعمد وأقصده في كثير من الأناشيد لإيماني بقدره الطفولة على الالتقاط والإدراك بالنظرة، صغارنا يفهمون بإحساسهم المتحفز الصافي أكثر مما يفهم الكبار أحيانا بعقول هم الصلبة المرهقة»[9].

يعترف سليمان العيسى بصعوبة المهمة، الملقاة على عاتق المجتمع والدولة، ولكن مع هذا فالكل مطالب ببذل مزيد من الجهود والمثابرة في سبيل إنجاح العملية التعليمية عند الطفل من خلال توفير جميع الإمكانات التي تكون لها فوائد على مستوى التكوين والتربية بجميع أبعادها، إلا أن لم يقوّض من عزيمته، ولم يثن من إرادته، بل كان على ثقة كبيرة بأن للطفل إمكانات واستعدادا لاستيعاب ما يقدم إليه

حتى وإن جاء في إشكال رمزية، وأدوات تعبيرية قد تفوق مستوى إدراكه العقلي ، وعليه فلا مانع من أن نعنى بالمخيال الطفلي، عن طريق تفعيل التخييل عنده بمزيد من العجائبية والغرائبية بين الحين والآخر، لأن الطفل في تلك المرحلة بحاجة ماسة إلى المزاوجة بين الحقيقة والمتخيل، ولكن في كل هذا يجب أن يحدث التمييز بينهما لكي لا يكون سببا في أن تتحول الطفل إلى عالم غرائبي بعيدا عن الحقيقة، ومن ثم قد لا يستطيع فيما بعد في القدرة على الصمود والتجاوز والتحرر من عالم يهيمن على مدركاته العقلية وبنيته الذهنية.

ولما كانت حاجة المجتمع بالطفل كبيرة كان لا بد من العناية به في مراحله العمرية المختلفة، وذلك من خلال تكوين معجم لساني متميز يكون مرتكز الطفولة، ودافعا في تعزيز رصيده اللغوي الجديد الذي يحرص على تشكيل هوية الطفل، ورسم معالم انتمائه، من أجل اكتساب شخصية معينة تتناسب مع طموحات المجتمع، وتستجيب للمتغيرات الآنية والظرفية التي قد تحدث بين الحين والآخر، وعليه فإن الدراسات الحديثة تولي اهتماما بالغا بإعداد الطفل في المراحل العربية المختلفة، تكوينا وثقافة، وكل هذا يكون عناصر الهويات ولعلّ الهوية اللغوية من أبرزها ذلك بأنها «الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها يتعرف عليها الآخرون باعتباره منتميا إلى تلك الجماعة، وهي شفرة تتجمع عناصرها العرقية على مدار تاريخ الجماعة (التاريخ) من خلال تراثها الإبداعي (الثقافة)...» [(10)]، ولهذا دأبت المجتمعات المعاصرة على حسن إعداد الطفل، إعدادا صحيحا من حيث التنمية اللغوية التي تقف على مدارات غرس مفاهيم لها علاقة وطيدة بمشروع العناصر التراثية المؤسسة للهوية اللغوية والجماعية، لأنّ العربية تعدُّ «أحد المقومات الحضارية للشعوب العربية الإسلامية، إذ أنها تعبّر عن أحاسيسهم وأفكارهم وطموحاتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم، كما أنها المحرك الأساسي لنشر التربية والتعليم وتعاليم الدين، وأداة قولبة الأفكار وإيصالها، فهي أداة اجتماعية تتطور بتطور المجتمع مع محيطه...» [(11)]، وهو ما يمكّن الطفل من صقل مواهبه عن طريق «تقديم كتب التراث تقديما بسيطا يراعى حاجات وفروق أطفال العصر، والمهمة هنا صعبة، فالأولى اختيار ما يتلاءم من كتب التراث، ثم ثانيا ما يتعلق وحاجات المرحلة العمرية من الكتاب المختار، وإعادة صياغة إن كانت اللغة عالمية أو غريبة، وهذا حال أبو رية في كاتبه "تبسيط كتاب الأذكياء لابن الجوزي"، وسبقته محاولات (يحيى بني يقظان لكامل الكيلاني ، وحي بن يقظان لصلاح عبد الصبور، ويذكر هنا دور كامل الكيلاني في تقديم التراث العالمي والعربي والديني والعلمي بلغة كان يخطر إلى شرح غريبها في الهامش، وكانت حاجة الطفل في مجتمع عنصر الكيلاني غي رها في مجتمع الطفل في عصر صلاح عبد الصبور»[(12)]، وعلى الرغم من هذه المحاولات الجادة من قبل بعض الدارسين والباحثين والكتاب إلى أن هذا ليس كافيا، إذا ما قارناه بما يحصل في الغرب من تبسيط التراث الغربي إلى الأجيال الصاعدة في أشكال جديدة ومتجددة، تراعى فيها الفترات الزمنية المتعاقبة، وما تفرزه من حاجات الطفل إلى شكل معين، يكون قادرا على ممارسة التأثير في الطفل، ومن ثم الاستفادة من

حضوره في صياغة مشروع ثقافة الطفل الحديثة، ولهذا فمن الأفضل برأي أن يكون هناك مشروع برنامج مدروس من جميع النواحي يكفل حقوق الطفل في المعرفة، والإطلاع على ثقافات تراثه بطريقة عصرية، ومن أهمها:

1-تبسيط كتب التراث ونقلها إلى الطفل مسؤولية الجميع.

2-على الهيئات الثقافية والأدبية وضع استراتيجية جادة في جعل التراث قريبا من قلوب الأطفال.

3-تصنيف كتب التراث من حيث أهميتها وأولويتها عند الطفل في إيصالها إليه.

4-تبسيط اللغة من حيث الغريب.

5-وضع معجم لساني معاصر يتناسب مع حاجة الطفل إلى ذلك.

6-انتقاء كتب التراث التي تعمل على التنمية اللغوية لدى الطفل، والاستجابة إلى الجمالية، وصقل الخيال الأدبي لدى الطفل.

7-تشجيع العاملين في حقل نقل التراث إلى الطفل، وتوفير لهم الإمكانات اللازمة إلى ذلك.

8-إعادة النظر في العناية بشؤون الطفل معرفيا وجماليا من شأنها اكتسابه المزيد من السلامة اللغوية، والصيانة التراثية.

9-يجب أن يوضع بعين الاعتبار الجانب النفسي عند التعلم أو القراءة.

10-المزاوجة بين التراث العالمي والعربي لأن الطفل في تلك المرحلة من حياته يكون بحاجة ماسة إلى تشكيل عصري قد يجد فيه تلبية لحاجة يكن تحققها في الكتابات الأخرى.

11-إنشاء جوائز مغرية لأحسن عمل موجه للطفل، سواء أكان عالميا أو عربيا.

12-تخصيص جوائز للطفل القارئ لقصص موجهة للأطفال.

إن العمل يمثل هذه الإجراءات والخطوات قد يكون مفعولها إيجابيا على مستوى التحصيل اللغوي للطفل، وتكوين له معجم لساني عربي تسهم في تأطيره من الناحية الجمالية اللغوية، «فعلاقة الطفل باللغة علاقة إنتاجية استمرارية، واللغة في علاقتها بالطفل أكثر من مصور، فهي واحدة من وسائل التعبير التي يتعامل معها الطفل»[13].

انطلاقا من هذا فإن اللغة قاعدة التواصل والحوار عند الطفل، ولهذا فإنّ الاعتناء بها، وتقديمها للطفل في قالب شائق وجذاب لها انعكاساتها الإيجابية على نفسية الطفل، من حيث تهيئته الأدبية وإعداده الاجتماعي السليم ليكون على قدر كبير من حمل مسؤوليات كبيرة في المستقبل، وبهذا نكون قد هيأنا الطفل إلى أن يكون مستقبل الأمة، ورمز انتمائها، وسر نجاحها، ولهذا ينبغي أن تكون لنا رؤية شاملة

في أبعادها المختلفة من حيث حماية الطفل، مما يقدم إليه من أجناس أدبية كالشعر، والقصة والمسرح والغناء أو على مستوى ما يشاهده أو يسمعه من برامج إذاعية، ولعلّ فن الشعر يأتي في مقدمة هذه الأنواع الأدبية نظرا لحضوره في المخيال العربي، قديما وحديثا.

الشعر: تماشيا مع هذا المنحى فقد ظلت الجهود الشعرية موجهة إلى الطفل لتعلم القراءة، كما ورد على لسان كامل كيلاني بقوله:

كنتُ في العام وليّ صغيرا غير أنّي أقرأ الآن الكتابا

وأجيدُ العدَّ لا أخطئ فيه وكذا أكتبُ ما يُملى صوابا

أذهبُ اليوم إلى مدرستي حافظا درسي في كل نهار

فوق ظهري جعبتي شاهدةٌ باجتهادي وهو حسبي من فخارِ[14]

هذا الشعور عند الطفل في المراحل العمرية الأولى من حياته في تعلم أبجديات القراءة وحرصه الشديد على المداومة في التعلم كبير أثر على تكوين شخصيته لأن «أدب الطفل لا يهدف إلى التسلية فقط، وإنما يهدف أيضا تعليم الطفل وتدريبه على ممارسة الحية وإدراك حقائقها»[15].

وقد انعكس اهتمام بعض الشعراء في الجزائر على توجيه قصائدهم إلى الطفل من ذلك ما تجلى في نماذج شعرية لمحمد الأخضر السائحي هما:

1-أناشيد وأغاني الاطفال 2000.

2-أناشيد النصر 1989.

إلى جانب بعض قصائد مصطفى الغماري، وقصائد ناصر لوحيسي الذي توجه بها إلى غرس بعض القيم عند الطفل من حسب القراءة والاخلاق السياسية، والتعلق بحب الوطن...الخ، «كما أن الشعر الذي يقدم للأطفال ينمي الجوانب الوجدانية والمشاعر والأحاسيس لديهم، فهو يغرس القيم التربوية في نفوسهم، وينمي المول الأدبية والقرائية لديهم، ويشجع حاجاتهم النفسية المتعددة، وينمي مهارات التذوق الأدبي والأداء اللغوي السليم، وتمثيل المعاني، وإخراج الحروف من مخارجها، والطلاقة اللفظية»[16].

ذلك أن الشعر يقوم على مرتكزين أساسيين، مرتكز لغوي قوامه السلامة اللغوية من خلال الاعتناء بالأداء من حيث بنيته الصرفية والنحوية والتركيبية، ومرتكز ثان يهتم بالوظيفة التربوية: القائمة على غرس مجموعة من القيم الاجتماعية والوطنية في الطفل، ولهذا يجب الاهتمام بالشعر الموجه للطفل في البرامج التربوية ولابد للمدرسة أن توفر كل الوسائل الممكنة التي تشعر بحيوية اللغة الصافية النقية وبفاعليتها وشدة ارتباطها بالواقع العملي لتجذب الناشئ إلى هذه اللغة...» [17]، لأنّ الثقافة العربية ثقافة شفوية تقوم بالأساس في التلقين على ملكة الحفظ والرواية، وهو ما يهيئ سُبل ملكة التذوق لدى الطفل

بطريقة سريعة، ومن ثم يتكون عند الطفل رصيد لساني متميز، تكون نتائجها متميزة على صعيد التكوين، على الرغم من أن هناك من يدعو إلى التخلي من الشعر بدعوى أنه كلام لا علاقة له بالمعرفة والعلم وغيرهما، ولهذا تتعالى الأصوات في بعض الأحيان، إلى نبذ الشعر ومحاربته ، وهذا لم يجدي نفعا، ذلك أن هناك جهودا جبارة من أجل إبراز دور الشعري في تنمية المدركات اللغوية للطفل، كما لا ننسى ما قام به الشاعر الكبير سليمان العيسى من دور فعال في جعل القصيدة الشعرية قصيدة للطفل بامتياز، وقد كرس حياته الشعرية على خدمة الطفل من خلال زرع بذور الخير والتربية في الطفل لكونه أساس البناء في صياغة المشروع الحضاري لأية أمة، من هذا المنطلق كانت غايته شعر الطفل تأليفا وتربية وتكوينا، وهو ما يعني أن الشاعر سليمان أسس أدرك بفطرته الصافية، وبعده نظره الاستشرافي أن القاعدة الأساسية في العملية التربوية والتعليمية تبدأ من الطفل.

المسرح: إن تأسيس مسارح للأطفال من شأنها تعزيز ملكتي السماع والمشاهدة أثناء حصص العرض، وهو ما يعني أن المسرح قادر على تلبية حاجات الطفل الذوقية المختلفة بطريقة سريعة ومجدية، وقد تجلى ذلك في إسهامات الرواد «المعلمين في كتابة مسرحيات للأطفال أ مثال الشاعر محمد غنيم، ومحمد محمود رضوان، ومحمد يوسف المحجوب، وإن لهؤلاء إنتاجا وافِرا من المسرحيات الإسلامية المستمدة من بطولات عظماء المسلمين وسيرهم، والمواقف العظيمة»[18]، ثم توجهت الكتابات المسرحية في الآونة الأخيرة إلى عرض مسرحيات هزلية وكاريكاتورية إلى الطفل، وبدأنا نلاحظ أن هناك سعيا حثيثا لاستغلال رغبة الطفل في المتعة الهزلية والجمالية والمتعة الثقافية، فبدأت تعرض في البلاد العربية بعض المسرحيات موجهة خصيصا للطفل، وازداد كتاب المسرح الطفلي بشكل لافت للانتباه في الوطن العربي، وما أعجبني في السنوات الأخيرة أن هناك تقليدا محمودا في الجزائر يتمثل في جعل كل عطلة من كل سنة يفرد لمدة أسبوعين يعرض فيها مجموعة المسرحيات موجهة للأطفال، وقد شكل هذا استجابة قوية لدى الأطفال، إذ يتوافد على هذه العروض المسرحية من كل جذب وصوب من جميع محافظات الشرق الجزائري، وهذا إن دلّ على شيء فإنما على أن بنية الطفل الجمالية بحاجة إلى مثل هذا الإمتاع والمؤانسة، بالإضافة إلى أن هذا الصنيع يعمل على تلبية حاجات الطفل، والمساهمة في تفعيل الجوانب الثقافية عنده، مع مراعاة حاسة التنمية اللغوية لديه، كل هذا إن كان على قدر كبير من المداومة والاستمرارية فإنه لا شك سيفيد في الوصول بالطفل إلى مدارك السالكين من الناحية التربوية، ومعارج الفصاحة اللسانية من ناحية التمكن في الوسيلة اللغوية، من هنا من المفيد تعميم العروض المسرحية في جميع الدول العربية، وأن يتبنى كُتّاب المسرح نهج الكتابة المسرحية للأطفال، مع مراعاة القدرات العقلية في التنمية اللغوية في المراحل اللغوية، وقد كان لعز الدين جلاوجي دور كبير في كتابة المسرحية للطفل، إذ أخرج كتاب ضمّن فيه مجموعة من المسرحيات الموجهة للطفل، سماه "أربعون مسرحية للأطفال"، وتتناول مجموعة من المضامين التعليمية والتربوية والإرشادية بدء من السن الابتدائي إلى الثانوي مرورا

إلى حركة دور الشباب وما لها من انعكاسات إيجابية على مستوى تفعيل التواصل اللغوي والتربوي عند الطفل.

الوسائط الإعلامية (المسموعة والمكتوبة المرئية)

شهد العالم في المدة الأخيرة انفجارا تكنولوجيا غير مسبوق من حيث هذه الاختراعات المتطورة على صعيد الصوت والصورة، إذ تمّ المزاوجة بينهما بطريقة مذهلة، فكان من نتائج ذلك أن أصبحت المجتمعات البشرية تعيش داخل البيت يمكن للإنسان في أية لحظة، وفي أي مكان من العالم من الحصول على المعلومات في ثوان وهو ما عزز التقارب، وانتقال التكنولوجيا إلى مجتمعات عبر وسائط مرئية لم يكن يحلم الإنسان قبل ذلك، من هنا حدث هذا الاختراق في المنظومات المعرفية والعلمية، وتجاوزت حدود الأقطار لتشكل منبعا علميا يستند إليه الإنسان في الاستفادة من الاكتشافات المتجددة في عالم التكنولوجيا المعلوماتية خاصة.

ومن أجل دفع عجلة البناء والتطور عند الشعوب بات من الضروري توظيف هذه التكنولوجيا خدمة للمعرفة والمجتمع، ولم يكن من بُدّ سوى استخدام هذه الوسائط مرتكزات في توصيل الأفكار والمعلومة إلى الآخر، ولما كان الطفل هو أول المعنيين بهذه الاستراتيجية، توجهت السياسية التربوية في الدول الغربية إلى عالم الطفولة، فبدأ التركيز على ما يمكن تقديمه للطفل عبر هذه الوسائط، حيث تحولت إلى برامج إذاعية تعنى بالطفل، وتقف على أهم أسباب نجاح هذه العملية بدءا بمعرفة نفسية الطفل، وتحديد أولوياته، ورسم طريق التربية والوسائل العاملة على إنجاح كل فعل تربوي هادف، ولأنّ الصوت والصورة عاملان أساسيان في تحريك الطفل، وتفعيل دوره في سبيل البناء والتقدم كان لا بد من استغلال الوسائط المرئية، فظهرت برنامج، بل وقنوات خاصة بشؤون الطفل، فكان من نتائجها أن الطفل ليس عن اهتمام الكبار، بل هو الهدف في كل عملية تربوية، وبهذا خطا الغرب خطوات جبارة في ميدان الطفل، ومن خلال ذلك انتقلت هذه الاهتمامات عند العرب، وظهرت على الساحة الإعلامية، بعض القنوات الفضائية التي تعنى بالطفل على سبيل المثال mbc3، وبراعم وجزيرة الأطفال وغيرها من القنوات التي استقدمت إطار تختص في هذا المجال، وتركز في وسطائها على الطفل من حيث تكوينه وتربيته، ومستقبله وأضحت اللغة العربية الفصحى أساس العملية الإعلامية، وبدأ الطفل العربي من الخليج إلى المغرب العربي يعيش أجواء جد إيجابية، وتحسنت كفاءات الطفل من ناحية، امتلاك اللغة العربية، وتعززت قدراته الإبداعية، مما أعطى للخيال جانب مهم في المنظومة التعليمية، عند الطفل لأن الشعور بأن المعلومات التي يحصل عليها الطفل من المدرسة ضئيلة إذا ما قيست بالمعارف التي تصل إليه عن طريق وسائل الإعلام المتعددة، ومن ثم فإن هذه الوسائل أصبحت بمثابة الموزع الرئيسي للثقافة بعدما كسبت الموزع– وهو الكتاب– عرشه وجاذبيته خاصة التلفزيون الذي يملك من الإشهار ما لايملكه الكتاب الموجه[19] .

بناءً على هذا تتنافس القنوات الفضائية في المجتمعات العربية على من يستحق شرف الريادة والتميز

من جهة، وتصبح قبلة الأطفال من جهة أخرى، وعلى الرغم من هذه الاسهامات اللغوية والاجتماعية والفكرية، إلا أن في بعض الحالات قد نجد أن هناك بعض من هذه البرامج ربما تميل إلى توظيف العامية كإطار مرجعي في الوسيلة التواصلية، وربما يكون هذا على حساب اللغة العربية، لأننا نؤمن بأن ثقافة الطفل تربطه بالمرجع اللغوي الذي يسمعه ويستخدمه فيما بعد، وليس من باب الاعتقاد الخاطئ تغليب العامية على حساب اللغة العربية الفصيحة، بدعوى أن في السن المبكرة من عمر الطفل يصعب تعليم اللغة العربية وفق قواعده النحوية، وعليه ينبغي أخذ هذه القضية بالجدية ومن ثم فإن إعداد الطفل والتدرج معه إلى أن يبلغ سنا معينة، ولكن هذا يكون له مخاطرة فيما لم نعد العدة، ونهيئ الطفل منذ المراحل المبكرة من حياته، في تلقينه أبجدية اللغة العربية وقواعدها، ولعلّ هذا ما عملت به بعض القنوات العربية المحترفة في عالم الإعلام، فأكسبت الطفل قوة لغوية وصار يتابع عن كثب هذه البرامج بشكل دائم ومثير، ذلك أنها قد لاقت استجابة كبيرة لدى الطفل، إذ شكلت لديه بعدا جماليا ومضمونيا، من حيث الإضافات التي أحدثتها هذه البرامج الإعلامية، ولا سيما المرئية منها في تكوين الطفل، فباتت سندا لغويا ومعرفيا من ناحية الممارسة والميران على مستوى اكتساب معجم لسان متميز، يمكنه فيما بعد من أن يصبح على قدر من الكفاءة اللغوية في استعمال اللغة العربية بوصفها شكلا من أشكال الهوية، ونسيجا اجتماعيا وإطارا فكريا.

وخلاصة القول، فإن أثر الكتابة الموجهة للطفل هي إسهام فعل في التحصيل اللغوي من حيث إنها تعمل على تكوين رصيد لساني متميز يكون قادرا على إحداث نقلة نوعية متفردة في عالم الغد، وهو ما ينبغي الاهتمام به والعناية بأسسه البيداغوجية والنفسية والتعليمية والتأليفية، وبهذا نكون قد خطونا خطوات جبارة في مسار مستقبل الأمة، لأنّ لغة عماد الطفل وأداته في رسم معالم الشخصية والهوية.

---

(1) _ أحمد شوقي: الشوقيات، ج1، (دط)، (دت)، ص38 وما بعدها.

(2) _ أحمد فضل شبول، أدب الأطفال في الوطن العربي قضايا وآراء، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية، 2000، ص117.

(3) _ عبد الفتاح أبو معال، أدب الطفل دراسة وتطبيق، ط2، دار الشروق للنشر والتوزيع، بيروت، 1988، ص23.

(4) _ عبد الفتاح أبو المعال، أدب الطفل– دراسة وتطبيق، ص24 وما بعدها.

(5) _ رشيد أحمد عطية، أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية، ط2، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2009، ص80.

(6) _ المتنبي، الديوان، ج4 ، ص251.

(7) _ رشدي أحمد عطية، المفاهيم اللغوية، عند الأطفال، ط2، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2003، ص570.

[8] _ عبد العزيز المقالح، الوجه الضائع دراسات عن الأدب والطفل العربي، ط2، دار الشعر، فرع الثقافة العامة، بغداد، 1986، ص31.

[9] _ المرجع نفسه، ص31.

[10] _ رشاد عبد الله الشامي، عالم المعرفة، إشكالية الهوية في إسرائيل، أغسطس/آب، الكويت، 1987، ص7.

[11] _ بوفلجة، غيات الهوية الحضارية والتنمية، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1986، ص12.

[12] _ مصطفى الصاوي الجويني، منشأة المعارف،بالإسكندرية، ص25.

[13] _ سمير عبد الوهاب أحمد، أ دب الأطفال، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1998، ص286.

[14] _ فوزي عيسى، أدب الأطفال، ص66.

[15] _ الربعي بن سلامة، من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، ط1، دار مراد، قسنطينة، الجزائر، 2009، ص75.

[16] _ حسن شحاتة، أدب الطفل العربي دراسات وبحوث، ط3، الدار المصرية اللبنانية، 204، ص22.

[17] _ أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، الكويت، 1990، أغسطس، آب 1996، ص314.

[18] _ فوزي عيسى، أدب الأطفال، ص98.

[19] _ محمد عبد الرزاق إبراهيم، ويح وآخرون، ط1، دار الفكر، عمان، الأردن، 2004، ص383.